

دراسة في الفن العراقي المعاصر

بقلم : شاكر حسن سعيد

الاسود الجريحة وسحنات الاشخاص ازاء وقفات الثيران المجنحة وملامح الملوك المتجمدة . ولم يكن مثل هذا (الازدواج) في الانجاز يحدث بصورة عفوية خلال منطقتي التطور الفني الرصين ، وكما تحدثت ظاهرة (التعاصر) Simultaneity في مطلع كل عصر فني ، وكما وجدت سببها خلال الرسوم الفارسية المصغرة على سبيل المثال ، كذلك كانت ستحدث داخل نفسية الفنان في بلاد ما بين النهرين هذه الظاهرة بشكل ازدواج في التعبير (٤) وكما حدثت ايضاً خلال طريقة عبادة الآلهة لدى شعوب الوادي العراقي : فمنذ حوالي خمسة آلاف عام كان ثمة آلهة عامة : (شمش) او (انليل) الى جانب آلهة اخرى خاصة يتخذها المتعبدين نفسه . وليس من فارق كبير بين ان يؤمن الفلاح الشعبي من سكان اواسط العراق (بالله) الى جانب تقديسه شخصية (الوالي) المحلي ، وبين ان يفيد الفلاح السومري (شمش) ازاء إلهه الخاص الذي يقوم بحماية الشخص من الشرور ويهديه بصورة سحرية الى سبيل الخير ، تماماً كما يقوم (الملكان) اللذان يحيطان بكتفي المتعبدين المسلم في ارشاده وتحذيره (٥)

(٤) راجع : Simultaneity in Islamic art ; by E Diez : Ars Islamica P. (185 - 189)

التعاصر : مدلول في وصف به ما كان يعترف المدرسة التكميلية في الرسم من ازدواج في الاراء . هو في الواقع ظاهرة من ظواهر الاسلوب الفني تنشأ في مطلع كل اسلوب او اتجاه او بالاحرى انه (الماهية التي تسبق ظهور الاسلوب الفني) او فترة الحضارة لذلك الاسلوب . ويكون التعاصر يشكل اداء ثنائي فكان الرسام خلاله يحاول ان يجمع عالمين مختلفين في لوحه واحدة .

(٥) راجع مجلة سومر .

راجع جولد تسيهر : العقيدة والشريعة في الاسلام ص ٢٣٢ - ٢٣٥ موضوع الحركات الدينية الاخير : وما يذكر بهذا الصدد ما يلي : (نشأ في الاسلام بتأثير عدة عوامل ، بعضها سيكولوجي والبعض الآخر ديني ، شكل من اشكال العبادة . وهذا الشكل مها عد مناقضاً لفكرة اللوهم في الاسلام ومهما اعتبر خارجاً عن جادة السنة الصحيحة سرعان ما اكتسب حقوقه المدنية في دولة الاسلام الشائعة ويعتبر عند كثير من طوائف المسلمين وجماعاتهم خطراً

١ - مقدمة : ثمة سلسلة طويلة لا تنقطع ، ما تفتأ تربط الماضي بالحاضر والحاضر بالمستقبل . ولكنها تستدق احياناً الى الحد الذي توشك به على الانقطاع . وقد تستعرض احياناً وتنشعب حتى تصبح مجموعة من سلاسل متجاورة نابتة من اصل واحد .

وتاريخ الفنون التشكيلية Plastic arts (١) في العراق كتأريخ اي انتاج حضاري آخر ، وليد المجهود البشري الرصين . وهو ما يمكن ملاحظته منذ بداية الحياة البشرية . لأنه السلسلة التي صاغ حلقها الاولى انسان العصور البدائية (ما قبل التاريخ) مثلما يصوغ حلقاتها الراهنة انسان العصور الحديثة . ولكن هذه السلسلة السعيدة لم تكن لتحافظ على متانتها طويلاً خلال بيئة تعتبر ممرأً طبيعياً ما بين قارتين (قديماً ما بين عالمين) وفي فترات تاريخية متعاقبة متناقضة معاً .

ولقد كان على الرسام والنحات والمعمار Architect العراقي منذ مطلع تلك السلسلة ان يصوغ بطريقة ما ، سلبية وإيجابية معاً ، حياته ويبلورها . ذلك من خلال عمله الفني . ومن ثم كان عمله الفني مجهوداً نسبياً في الوقت الذي هو فيه مجهود مجرد . فقد كان يبني (المنزل ذا الفناء) الى جانب هيكل (الزقوره) المدرج (٢) . ويرسم صورة (الاسد) بملامحه الطبيعية الى جانب صورة (التنين) بملامحه الخرافية (٣) مثلما ينحت (وكان مجاله هنا اوسع من سواه) ملامح

(١) الفنون التشكيلية هي فن المعمار والرسم والنحت . وذلك لأنها تمارس تشكيل (الشيء) خلال الابعاد .

(٢) راجع ول ديورانت : قصة الحضارة . ج ٣ ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٢٤٦

٢٩٣ ، ٢٤٧

وقد استمرت هذه الطريقة في العمار خلال العصور التالية - الحضارة الاسلامية حتى الوقت الحاضر ، فالى جانب البيوت ذات الفناء والشرفات نجد المساجد ذات المنائر والقبات .

(٣) راجع مجلة سومر (شكل (٣) ، (٤) الجزء (٢) المجلد (٦) ١٩٥٠

ومند مطلع الحضارة الاسلامية حتى مطلع القرن الراهن ، حيث تمتد حقبة من الزمن تتبلور خلالها شخصية الفن العراقي وهي تحت تأثير التفكير البدوي ، اضحى على الرسام والنحات - ولحد ما المعمار ، ان تدوب شخصيته الفنية في قالب الزخرف او الخطاط . لقد كان في الامكان ان تتشكل الحضارة الهلينية في بلاد الشرق الاوسط تشكلاً كاذباً على حد رأى شبنجلر . وان يعير الفنان العراقي لحد ما تعبيراً ذا مسحة اوربية . ولكن لم يكن باية حال من الاحوال ان يدفع عنه الانسان التأثير الجذري بالبيئة (زراعية او جبلية او صحراوية) فيرفض حيناً يظهر الفنان الآن منذ القرن الثامن الميلادي بمظهر البدوي التعبير عن طريق الرسم والنحت من اجل نمو التعبير عن طريق الزخرفة والخط . ومهما قيل عن اقضاء الفنان المسلم عن الرسم والنحت فهو في ذاته هروب امام قدرة الله وتنكب عن منافسته في خلق الانسان . فان هذا القصور في صميمه تحول محتوم وبلورة محكمة . تحول للطاقة الفنية من شكل لشكل آخر . وبلورة لجهود الفنان المشكل في نطاق المنطق المجرد . وهكذا يتضح ان مغزى الفن الزخرفي كامن في استيعابه المزمّن لفن الرسم والنحت بالاضافة الى توضيحته بالعالم المكاني من خلال اكثر مظاهر الفن التشكيلي صموداً - اي من خلال المنظور الجوي Perspective . مثلاً يتضح ان في طمسه البعد الثالث توصلاً نهائياً للعالم المجرد وقبولاً مبهما للزمان السرمدى . والواقع ان كل هذا التحول وهذا الاحتواء تصفية لا غنى عنها لمشكلة التعاصر في الفن الاسلامي وصقل اضافي لها ، فمهما كانت القطعة الزخرفية المثبتة في واجهة احد المساجد مطلعاً نهائياً للعالم المطلق ، فانها في نفس الوقت الاشارة المناسبة لعابر السبيل الذي باستطاعته ان يلج المسجد للمبيت وليس لغرض الصلاة فحسب . ومهما كانت الرقعة المكتوبة مناسبة ما لقراءة الآيات او اسماء الاشخاص فانها

واعلى قدراً من جوهر الدين الاسلامي ذاته . وهو الصورة الصحيحة التي يتجلى فيها الايمان الشعبي وهذا الايمان الساذج يرى ان الله بعيد عن الناس . وان الاولياء المحلبين هم ادنى الى نفوسهم وقلوبهم . ولهذا هم موضع التكريم في عباداتهم كما انهم مبعث مخاوفهم ومعقد آمالهم ومحل تجيلهم وورعهم .

ص ٢٣٢

في نفس الوقت زخرفة لضريح او قبة . (٧) واذن ، فان ما كان ينتاب الفن التشكيلي فالزخرفي في العراق من تطور ونمو مستمرين ، انما هو دلالة واشارة للافصاح عن نمو السلسلة الذهبية التي يصوغها الفنان خلال الزمن الحاضر : ليس الماضي ولا المستقبل . وفي الزمن السرمدى : تلك اللحظات المسترسلة اللامتناهية في العصر ، والتي لا نهاية لها .

*

ومند مطلع القرن العشرين (اواخر القرن التاسع عشر) كانت اول بداية لحركة فنية معاصرة ، ولا بد ان السلسلة كانت قد هزلت بضمور فن (الصور المصغرة) Miniature ولم تعد ثمة اسماء لرسامين مبدعين ، تصمد . فلا ال (واسطى) ولا (عبد الله بن الفضل) . بيد ان هذا لا ينفي احتمال استمرار نوع آخر من التعبير التصويري سيسود جدران المقاهي والبيوت وحانات الشراب ودكاكين الحلاقين ، لاتزال آثاره باقية خلال النسخ الاخيرة للرسام الشعبي . انا لا اقطع بهذا ابدأ . ولكن انعدام مصادر الرسوم المصغرة لا يقلب فن الرسم ما بين الاعوام التي اعقبت انهاراً آخر (حركة الناصر لدين الله) ، لسبب ما . وكان عليه ان يستمر على جدران البيوت (ومن المؤسف ان تنعدم مصادر الرسوم الجدارية وذلك لسرعة تلفها) .

ولقد كان على فارس في نفس الوقت ان تدل بـ (بهزاد) و (اقاميرك) و (رضا عباس) و غيرهم ، طيلة قرون خلت فيها من رسام حقيقي . ومع ذلك فقد بدت اخيراً بوادر انتعاش حديث لفن الرسم في بداية هذا القرن . هذا العصر الذي تنتحر فيه القيم وتولد معاً .

باريس شاكو حسن سعيد

(يتبع)

(٧) ان نعمت الفن الاسلامي بانه تحول للفنون التشكيلية خاصة (الرسم والنحت) ضمن الفن الزخرفي لا يتعارض و ظهور المدارس الفنية التشكيلية منذ القرن الثالث عشر الميلادي كمدرسة بغداد في العراق ثم المدارس المغولية والتميمورية والصفوية الخ .. في فارس . ذلك ان هذه المدارس بدورها كانت تنطوي على التعبير الزخرفي مثلاً تتمتع (بالتعاصر) كقيمة وخاصية . (راجع

ص ١٥٨ - ١٨٩ E. Diez Ars Islamica . Volume iv

Simultaneity in Islamic art